

أبعاد احتواء مدرسة الشيخ لمختلف مناطق الوطن، ومعايير انتقاء الشيخ للطلبة (ملخص)

✍ الشيخ عبد الرحمن الباعوري

شيخ بولاية تمنراست وأحد طلبة الشيخ ابن الكبير رحمته الله



الحمد لله رب العالمين، أحمداً ربّي على نعمك الجليلة وعطاياك الوفيرة،
وأمداداتك العظيمة، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك،
أنت قيوم السموات والأرض، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، بعثه الله هادياً ومربياً ومعلماً،
أنزل عليه كتابه القويم، فهدى به من الضلالة، وأنار به الظلمة، وكشف به الغمة،
وما انتقل إلى جوار ربّه حتى ترك الأمة على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا
يزيغ عنها إلا هالك، وضمن الله لنبيه حفظ هذه المحجة بالعلماء الأجلاء.

قال عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾⁽¹⁾. فرفع منار العلماء وأشاد بهم فيما
نزل من السماء، قال عليه السلام: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾. وقال سبحانه:
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾⁽³⁾. ويقول عليه السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾⁽⁴⁾. أولو الأمر كما يقول أهل العلم هم
العلماء. وقال بعض المفسرين: أولو الأمر الأمراء والعلماء. ويقول عليه السلام: ﴿يَرْفَعُ

(1) سورة الرعد/7.

(2) سورة الزمر/9.

(3) سورة فاطر/28.

(4) سورة النساء/59.

اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴿١﴾. ويقول ﷺ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٢).

ويقول مولانا رسول الله ﷺ: مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ. قال ابن المنير كما نقله ابن حجر: من لم يفقهه في الدين لم يرد به خيراً. وروى أبو الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ. وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوْرَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة كما يقول الشيخ السعدي رحمه الله: أنهم يدينون الله باحترام العلماء الهداة. أي أن أهل السنة يتقربون إلى الله بتوقير العلماء وتعظيم حرمتهم. قال الحسن: كانوا يرون موت العالم ثلثة في الإسلام لا يسدها شيء ما اختلف الليل والنهار. وقال الأوزاعي: الناس عندنا أهل العلم ومن سواهم فلا شيء. وقال سفيان الثوري: لو أن فقيها على رأس جبل لكان هو الجماعة.

وما جلسنا هذا المجلس إلا لnrشف من نفحاتهم ونعظم بذكرهم ونتبوا المكانة العظمى، لأن التوقير والإجلال لهم من الواجبات. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (٣). وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٤). فمن هذه النصوص وغيرها حظي علماؤنا بكل التقدير والرفعة وعلو المكانة. وإذا نظرنا لهذه المنطقة خصوصا نجد أن التعليم ارتبط منذ القدم إلى يومنا بانتشار المدارس العتيقة، أو ما يسمى بالمدارس القرآنية أو التعليم الإسلامي أو التعليم الأصل، أو الزوايا، وقد قامت هذه المدارس بتلقين لعلوم النقلية كالعلوم الشرعية والعلوم اللغوية والمعارف الأدبية والعلوم العقائدية الصحيحة.

(1) سورة المجادلة/11.

(2) سورة آل عمران/18.

(3) سورة الحج/30.

(4) سورة الحج/32.

وقد ساهمت أيضا في توفير الأطر المؤهلة، والكفاءات العلمية، التي تولت مهمات التدريس والفتيا، والإمامة والخطابة، كما تخرج من هذه المدارس كثير من العلماء والمفكرين والمثقفين، والعديد من الجهابذة الموسوعيين المتعمقين في كل فنون المعرفة. وقد اشتهروا؛ لأنهم شملوا عن سواعد الجد لتهديب نفوس الناشئة، وتطهيرها من الشك والإلحاد، وبرائن الشر والضلالة، عبر تأسيس مجموعة من الرباطات والزوايا المنتشرة عبر ربوع الوطن وغيره. فهي كثيرة.

والحمد لله أسست لتلقين هؤلاء المتعلمين مبادئ الشريعة الإسلامية، وقواعد اللغة العربية، وإقرار الدراسات الإسلامية والحفاظ على العقيدة المحمدية، وحماية اللغة العربية من العاميات واللهجات المحلية، كما ساهم هؤلاء العلماء في الحفاظ على المذهب المالكي وتمثيل التصوف السني والدفاع عن العقيدة الأشعرية، ومن هذه المدارس مدرسة شيخنا وولي نعمتنا سيدي الشيخ محمد بن الكبير طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه، التي جمعت في روضتها الغناء ومن بين أزهارها الفيحاء خيرة الأمة من كل أنحاء الوطن، ولهذا الاحتواء أسبابه.

ومن أسبابه: ارتفاع صيت المدرسة وشهرتها الفائقة حتى خارج الوطن، وذلك راجع إلى غزارة علم المتخرجين منها؛ حيث أعطوا المثل الأعلى في القدوة والإصلاح، فقد تربوا في كنف المدرسة وعلى يد شيخها المغفور له عليه من الله سبحانه الرحمات الذي ما ادخر جهدا في أن يكون الطلبة أهل اقتداء حسن لعلمه وأن الناس جميعا أعينهم معقودة في علمائهم فإن رأوا منهم أمرا اقتدوا به، وكثيرا ما يغير العالم بعمله ما لا يغير بقوله، كان عبد الملك بن مروان يقول لمعلم صبيانه: أحطهم بعملك قبل قولك فإن أعينهم معقودة بك والحسن عندهم ما حسنت، والقبيح ما قبحت.

وكان شيخنا مثالا في الأخلاق الفاضلة يغير بعمله قبل قوله، فانسحبت أخلاقه على طلبته وهم يسمعون ويرددون في بعض دروسه قول الشاعر:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التغيير
تصف الدواء لذي السقام وذو الضنا كيما يصح به وأنت سقيم
فابدأ بنفسك فانها عن غيرها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

وكان الشيخ رحمته الله: يمثل «الرجل العالم الذي لا يعمل بعمله» بـ "حجر السن" الذي يُسَن الحديد ولا يقطع. فأخذ عنه الطلبة هذا الخلق فكان دافعا قويا لهطول الطلبة على المدرسة، كل يسعى ليغترف من معين الأدب بالعلم الصافي.

ولعل السبب الثاني: هو نوعية العلم الصحيح والنهل الصافي الذي يتلقاه الطلبة غضا طريا لا شائبة فيه، يتصدرها حفظ القرآن الكريم كما أنزله الله تعالى، فكان من أولويات ما يكلف الطالب بحفظه واستظهاره؛ لأن حفظ القرآن الكريم يفتح مسامع القلوب، وهو مفتاح جميع العلوم ومصدرها، وهو الإرث الصحيح الذي تركه لنا خير البرية صلى الله عليه وسلم في قوله: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِن تَمَسَّكْتُمْ بِهِ فَلَنْ تُضِلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ، وَسُنَّتِي...» فما صلحت الأمة في أولها إلا بالقرآن الكريم، ولا يصلح آخر الأمة إلا بما صلح به أولها، ولا يبلغ المرء خيرا إلا بمصاحبة كتاب الله علما وعملا وتعلima، قال صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

والشرف الأعظم، والخير الأكبر، والتقدم وعلو المكانة في هذه الأمة، مقياسه مرتبط بالقرآن الكريم؛ ليكون هذا القرآن هو محور الحياة، وجوهر التقدم؛ ذلك أهم ما كان يصبو إليه الشيخ رحمته الله، يحث على حفظ القرآن حتى تصلح به النفوس ويكون صاحبه مؤهلا لأن يكون مصلحا، وتلك هي المؤهلات التي أقرها الفاروق عمر رضي الله عنه، والصورة تتضح عندما نسمع لهذا الحوار الهادئ والهادف بين أمير المؤمنين وأمير مكة عندما لقيه في موسم الحج: من خلفت

على أهل مكة؟ فيقول: خلفت عليهم ابن أبزى، فقال الفاروق: من ابن أبزى هذا؟ قال: مولى من مواليها. فيقول: خلفت عليهم مولى من الموالي؟ كأنه ما استحسّن صنيعه، فجاءه حينئذ أمير مكة بمؤهلات عظيمة كانت لهذا الرجل حتى تولى أمر الأمة ويتولى مصالحها نيابة عنه. فقال: يا أمير المؤمنين: إنه قارئ لكتاب الله، شهادته عليا، وخبرته عظمى، ومرتبطة بالقرآن حفظا له وفهما لمعانيه وتدبرا في آياته وتطبيقا لأحكامه خوفا من وعيده وتعلقا بوعده، فينطق عمر رضي الله عنه فيقول: إني سمعت رسولكم ﷺ يقول: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين.

وما أحسن ما قيل:

رَأَيْتُ الْعِلْمَ صَاحِبُهُ شَرِيفٌ	وَإِنْ وَلَدَتْهُ آبَاءٌ لِيَامُ
وَلَيْسَ يَزَالُ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْ	يُعْظَمَ قَدْرُهُ الْقَوْمُ الْكَرَامُ
وَيَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ	كَرَاعِ الضَّأْنِ تَتَّبِعُهُ السَّوَامُ
وَيُحْمَلُ قَوْلُهُ فِي كُلِّ أَفْقٍ	وَمَنْ يَكُنْ عَالِمًا فَهُوَ الْإِمَامُ
فَلَوْلَا الْعِلْمُ مَا سَعِدَتْ نُفُوسٌ	وَلَا عُرِفَ الْحَلَالُ وَلَا الْحَرَامُ
فَبِالْعِلْمِ النَّجَاةُ مِنَ الْمَخَازِي	وَبِالْجَهْلِ الْمَذَلَّةُ وَالرَّغَامُ
هُوَ الْهَادِي الدَّلِيلُ إِلَى الْمَعَالِي	وَمِصْبَاحٌ يُضِيءُ بِهِ الظُّلَامُ
كَذَاكَ عَنِ الرَّسُولِ أَتَى عَلَيْهِ	مِنْ اللَّهِ التَّحِيَّةُ وَالسَّلَامُ

وكثيرا ما كان يحث الشيخ رحمته الله مريدي الإمامة على حفظ كتاب الله لأن الإمامة أعظم فريضة كما جاء في السنة عنه ﷺ: يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم إسلاما فإن كانوا في الإسلام سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأكبرهم سنا.. فحفظ القرآن عظم المدرسة في أعين الناس فقصدوها من جميع ربوع الوطن.

ج - دراسة معمقة للمتون التي تحمل من العلوم أنفسها ومن المعارف أقدسها فمن اللازم والحتمي حفظ المتون وحضور الحلقات بشرحها، لا يتغيب عنها إلا معذور، وتناقلت هذه الحلقات بما فيها من فوائد جلييلة إلى أنحاء الوطن من خلال طلبة جهابذة طبقوها عمليا فاستفاد الناس منها ورغبوا أن يكون لأبنائهم الباع الطويل فأقبل الطلاب ليكون لهم الحظ الأوفر لثني الركب ومزاحمة إخوانهم، فحوت المدرسة العديد من الطلبة، فكان لهذا الاحتواء أثره الواضح والظاهر، ففتحت مدارس في كثير من المناطق تنشر العلم في حياته وبعد وفاته. هذه المدارس المنتشرة هنا وهناك ما هي إلا استمداد للمدرسة الأم، ولعل هذا هو سر احتواء المدرسة للطلبة من جميع ربوع الوطن. بل حتى خارج الوطن.

معايير انتقاء الشيخ رحمته الله لطلبه: لما ذاع صيت المدرسة في أنحاء الوطن وعديد الأماكن من دنيا الناس تقاطر إليها الطلاب، وصارت قبلة يقصدها الطلاب، ينهلون منها حاجاتهم. وما كان الشيخ ليقبل كل من جاء طالبا، بل كان هناك عمليات انتقاء وكيفيات خاصة للطلبة: منها حثه رحمته الله على خلو قلوب المريدين من علوم فاسدة، وعقائد منحرفة، وكان يتمثل قول من قال: استودعوا العلم الأحداث إذا رضيتموهم. وقوله عليه الصلاة والسلام: «يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمُ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُوَّهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَخْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ».. وكان يقص في بعض حلقاته أن رجلا جاء بابنه لأحد المشائخ، فقال الشيخ: هل سبق لابنك هذا العلم علم؟ قال: سبق له علم العربية، فقال له اذهب بابنك، هذا لا يجيئ منه خير، لقد سبق إلى قلبه أشعار العرب، وتعلم العشق. وكان يؤجل بعض الطلبة لشهر أو أكثر أو أقل، ولعل هذا - والله اعلم - من أجل الاستخارة، فقد سألت بعض الطلبة عن إمهال الشيخ بعض الطلبة، فلم أجد جوابا شافيا، فهناك من قال لعل ذلك من أجل الاستخارة، أو التأمل من خلال النظرة الأولى لتلميذ؛ لأنه كان في بعض الأحيان يطلب امتثال التلميذ الراغب

أمامه وينظر إليه، ثم يؤجله لمدة معينة، فتكون نظرة تفرس، كما ورد: اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله، ولعله يريد استكشاف همة ولي التلميذ أو التلميذ نفسه: إن كانت له رغبة رجوع، وإلا لم يرجع.

وخلاصة القول أن المدرسة حوت العديد من الطلبة مع اختلاف أعمارهم، ولذلك حققت لهم ضمانات: الصغير منهم تربى تربية حسنة إسلامية دينية، والكبير منهم صحح الكثير من الأخطاء التي كان يعتقد أنها صحيحة، وهي مستمرة من خلال الزوايا المنبثقة عنها في أنحاء عديدة مما يضمن استمراريتها إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

فرحم الله شيخنا بذل حياته كلها خدمة للإسلام حتى توفاه الله عليه من الله الرحمة والرضوان والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

